الفصل الخامس عشر
مناهج التفسير

١ـ التفسير والتأويل :

لا شكَّ أن الأصل اللغوي للتفسير ، أو الفسر ، يفيد البيان ، وهو مقلوب سفر الذي يفيد الوضوح والكشف ، ومنه قوله عز وجل : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان : ٣٣] ، وفي الاصطلاح الديني : « عِلْمٌ يُفهم به كتاب الله المنزّل على نبيّه ﷺ ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه »[١] . وقيل : « علم يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية »[٢] .

أما التأويل فيتخذ دلالة أخرى ، وهو في الأصل من آل يؤول ، أي : جمع وساوس ، وقد ورد مصطلح التأويل في القرآن الكريم : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران : ٧] . والمقصود علم المتشابه .

وورد متعلقاً بالرؤيا : ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وورد بمعنى الخبر العظيم : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس : ٣٩] ، ومن خلال هذا السياق القرآني نجد أن التأويل يقترن بالروية وإعمال الفكر .

---

(١) البرهان ، للزركشي : ١/ ٣١ .

(٢) مناهل العرفان للزرقاني : ١/ ٤٧١ .

ويمكن أن نقول ﴿ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ : أي تقديره وتفسيره ، فالآية تعني الشّفّ أيضاً ، ولذلك قالوا : « التفسير بيان اللفظ عن طريق الرواية ، والتأويل بيان اللفظ عن طريق الدراية ، أو التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة والتأويل هو بيان المعاني التي تُستفاد بطريق الإشارة »[1] .

ولا بد لمتدبر القرآن من الاحتكام إلى التفسير الذي هو عام كلي ، وإلى التأويل الذي هو خاص جزئي ، وذلك أن ثمّة المنطوق القرآني مثل : ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ومنه المؤول القرآني كالمتشابه المعنوي المتصل بالصفات الإلهية : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ ﴾ [الحديد : ٤] ، و﴿ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، ومنه المفهوم القرآني : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، و﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ ﴾ [النساء : ١٠] .

فالنوعان الأخيران يحتاجان إلى صرف اللفظ إلى معانٍ أخرى وهو منهج التأويل ، إذ المعية خاصّة بالألوهية والهيمنة ، وكذلك الاستواء خاصّ ، ويُفهم من الآية الرابعة أن ضرب الوالدين أشدّ تحريماً ، وأنّ ظلم اليتامى لا يقتصر على أموالهم بل يشمل إتلافها .

٢ـ دواعي التفسير :

اشتمل القرآن على ما هو مفصّل وما هو مجمل ، وقد أوكل الله عز وجل إلى نبيه عليه الصلاة والسلام مهمّة تبيانه ، قال : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] ، وقد قال الإمام أحمد رضي الله عنه : « السنة تفسر القرآن وتبيّنه »[2] .

---

(١) مناهل العرفان : ١/ ٤٧٣ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ١/ ٣٩ .

وتحقيقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ كرّم عباده بدفعهم إلى فريضة التفكير في معاني الكتاب الأعظم وتدبّر آياته ، وقد ازدادت هذه الحاجة الدينية في التفقّه القويم والفهم السليم بعد أن انتقل النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى ، وثمّة سبب تاريخي يعضد الحاجة الدينية وهو تفاوت الملكات العقلية والقدرات اللغوية بين عصر وعصر ، وشخص وشخص ، قال تعالى : ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

كان تفسير القرآن فريضة نزلت معه ، فلا بد من فهم ووعي للأوامر والزواجر حتى ينقلب العلم إلى عمل ، قال تعالى : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩] ، ولهذا كانت عناية السلف الصالح من الصحابة والتابعين بالغة بالقرآن وتبيان معانيه ، ساعدهم على هذا سلامة لسانهم ، وعلوّ فصاحتهم ، واطلاعهم الواسع المعمّق على السنة ، خصوصاً أن الحكمة الدينية اقتضت ألا يفسّر النبي عليه الصلاة والسلام كلّ القرآن ، بل ترك هذا التدبّر للأمة في كل عصر ، سعياً لاحتواء الواقع وملاءمته لمقررات الشرع .

٣ـ مصادر التفسير :

أ ـ التفسير القرآني للقرآن :

ويعد هذا المصدر قطعياً في ثبوته لا ريب فيه ، لأن الله عز وجل هو الأعلم بمضامين كتابه الأعظم ، وثمة دلائل نصية على وجود هذا النوع في بعض الآيات التي تفسّر آيات أخرى ، وهذا على نوعين :

أولاً ـ أن يكون آخر الآية تفسيراً لما ورد في أولها ، وهذا أسلوب بلاغي حيث الإجمال والتفصيل ، مثل قوله تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة : ١٨٧] ، فعبارة

﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فسرت اللغة المجازية السابقة . ومنه : ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق : ١ـ٣] .

والنوع الثاني : يكون في آيتين متباعدتين ، مثل قوله عز وجل : ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، فهرع الصحابة إلى النبي ﷺ قائلين : « وأينا لم يظلم نفسه ؟ » فأرشدهم إلى آية أخرى تفسّر الظلم ، فقال : « ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح لابنه : ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] إنما ذلكم الشرك »[1] .

وكذلك السكوت عن نوعية المحرم : ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة : ١] ، ثم فسر في الآية التالية ففصلت المحرمات : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة : ٢] ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة : ٣٧] ، هذه الكلمات فسّرها قوله عز وجل : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف : ٢٣] وخير مصنّف في هذا المضمار « تفسير القرآن بالقرآن » للدكتور عبد الكريم الخطيب رحمه الله ، وجاء في مجلدات عدّة .

ب ـ التفسير النبوي :

لقد كانت نشأة التفسير ببركة توجيهاته عليه الصلاة والسلام وإذعانه للأمر الإلهي بتبيان مقاصد القرآن ، وهذا النوع يعني مقابلة نصّ قرآني بنص حديثي ، ويتأتّى من هذا تأويلات الفقهاء واجتهاداتهم .

والمعروف كما أسلفنا أن التفسير النبوي ليس كلياً شاملاً ، فهو

---

(١) البخاري ، الإيمان ، ح (٣٢) .

لا يشمل ـ لحكمة إلهية ـ كل وجوه التفسير للآية الواحدة التي تتّخذ جوانب فكرية متعددة ، ولا يشمل كل الآيات ، بل يقتصر على الجانب العقيدي والفقهي مما يلزم استمرار العبادة على النهج القويم بشعائرها الصحيحة .

ويمكن أن نضرب مثالاً من كتب التفسير في الصحاح ، ونقرأ تفسير آية بنص نبوي ، ولكن تبقى النفس مشوقة إلى الاستنباطات والإيحاءات كالجوانب البلاغية في السبك والتفسير العلمي للآية من إشارات جغرافية ، فضائية ، جيولوجية ، طبية ، ولو كان النص النبوي كافياً للتفسير والعمل لبطلت التفاسير وكتب الفقه التي نعتزّ بها .

ولم يكن التفسير النبوي اجتهاداً شخصياً ، بل هو تنفيذ لأمر إلهي ؛ فالسنة شارحة وينبغي أن تُقَدَّمَ في التفسير أياً كانت وجهته ومشاربه ، وهو تفسير لا يمتزج بعقل ، بل هو نقل الخبر الصادق : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣ـ٤] .

ج ـ تفسير الصحابة :

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة ، وهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأُبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم[1] ، وكان علي رضي الله عنه أكثر من روي عنه بين الخلفاء ، لصلته الوثيقة بالنبي ﷺ فكان أن أثّرت في استنارة نفسه وسعة علمه ، بالإضافة إلى موهبته في الفطرة الصافية ، ورجاحة العقل حتى قالوا في المثل : « قضية ولا أبا حسن لها » . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « ما أخذتُ من تفسير القرآن

---

(١) الإتقان ، للسيوطي .

فعن عليّ بن أبي طالب » . وقد قال في خطبة له : « سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم ، سلوني عن كتاب الله ، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلمُ بليل نزلت أم بنهار ، أفي سهل أم في جبل » .

أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فكان سادس مسلم على وجه الأرض ، وكان يلازم النبي ﷺ يخدمه ، وقد روي عنه أكثر من علي الذي تفوّق على أقرانه الخلفاء لعدم انشغاله بالخلافة كما انشغلوا .

وقد ورد عن ابن مسعود ما يدل على سعة علمه ، ومعاينته الدقيقة لنزول القرآن ، وفهم معانيه ، قال : « والذي لا إله غيره ، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه »[1] .

وقد تتبّع العلماء المحدّثون بعض مرويات ابن مسعود بالنقد والتجريح لضعف أسانيدها ، وقد دخل الاختلاط الكثير من مرويات الصحابة عموماً ، لأنها لم تكن مدوّنة ، ولذلك تسرّب إليها كثير من أقوال الزنادقة واليهود والفرس وأهل الخرافات .

ولذا تشدد الإمام الشافعي رضي الله عنه فلم يثبت أكثر من مئة حديث تفسيري لابن عباس رضي الله عنهما ، وهو رأي الإمام أحمد رضي الله عنه ، وهذا مبالغ فيه ؛ فتفسير مجاهد تلميذ ابن عباس يدل على صحة كثير من الأحاديث .

هذا التحذير قائم مخصوص بتفسير آيات القصص إذ احتاج الصحابة إلى أهل الكتاب والفرس فيما يخص علامات الآخرة ، وخلق الكون ،

---

(١) البخاري ، فضائل القرآن ، ح(٤٧١٦) ، ومسلم ، فضائل الصحابة ، ح (٢٤٦٢) .

وقصص أهل الكهف ، وإرم ذات العماد ، أما ما يتصل بالفقه فهناك أحاديث كثيرة صحيحة جاءت تحقيقاً لقوله ﷺ في ابن عباس : « اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل »[1] .

٤ـ أنواع التفسير :

أ ـ التفسير بالمأثور :

سمي كذلك لاتباع الأثر في التفسير ، إذ اعتمد على الحديث المرفوع والحديث الموقوف ، ويغلب على هذا النوع كثرة التقليد ؛ لأن النصوص المفسرة واحدة ، فتختلف كتب التفسير بالمأثور بالأسلوب الخارجي ، وتتفق بالمنهج الفكري العام ، ونذكر منها :

١ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن :

وهو المشهور باسم تفسير الطبري ، وصاحبه العلامة الفقيه المحدث شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري ، ولد في طبرستان سنة (٢٢٤هـ) ، وتوفي في بغداد سنة (٣١٠هـ) .

وكان الطبري عالماً بالقراءات ، وشيخاً للمؤرخين ، مجتهداً في الفقه ، له من الكتب : « تاريخ الرجال » في الصحابة والتابعين ، وفي الفقه له : « لطيف القول » ، الذي جمع فيه مذهبه الذي استقلّ به ، وأهمّ كتبه عدا التفسير « تاريخ الأمم والملوك وأخبارهم » .

أما تفسيره فقد لقي رضى ورواجاً منذ القدم ، قال ابن تيمية

---

(١) هذا اللفظ رواه أحمد في المسند : (٢/ ٢٦٤ـ ٣١٤ـ ٣٢٨ـ ٣٣٥) ، ورواه البخاري ، فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ح(٣٥٤٦) ، ومواضع أخرى ، ومسلم ، في فضائل الصحابة ح (٢٤٧٧) ، الترمذي ، المناقب ، ح (٢٨٢٣ـ ٢٨٢٤) ، ابن ماجه ، المقدمة ، ح (١٦٦) .

رحمه الله : « وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين »[1] .

وقال نولدكه عام (١٩٦٠م) بعد اطلاعه على بعض من تفسيره : « لو كان بيدنا هذا الكتاب لاستغنينا عن كل التفاسير المتأخرة ، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماماً ، وكان مثل تاريخه مرجعاً لا يغيض معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم »[2] .

ولم يكن الطبري في تمجيده للنقل جامداً غير مجتهد ؛ بل كان أحياناً يرجّح بعض الأقوال حين تقتضي الحاجة ، إذ كان على الأغلب يشدد على ضرورة الرجوع إلى أقوال الصحابة والتابعين خشية الانزلاق في اجتهاد خاطئ ، فيكون شديد النكير على أصحاب التفسير بالرأي .

ولا نذكر أنه لا يتعقب الأسانيد التي ينقلها بتصحيح أو تضعيف ، فهذا مقرر عنده في أصول الحديث ، ولهذا نجده في مواضع كثيرة ينتقد فيها السند ، فيذكر تعديل المحدّثين أو تجريحهم . فيقبل الرواية ، أو يردّ ما لا يثق به .

وكان يقدّر الإجماع في المسائل الفقهية ، وهذا واضح في القراءات ، إذ كان يردّ ما لا يُعتمد منا عند الأئمة ، أو تلك التي تخالف الرسم ، وترجع عنايته بالقراءات إلى أنه كان عالماً بها ، وقيل : إنه ألف فيها كتاباً حافلاً كبير الحجم[3] .

وقد أكثر الطبري من ذكر الإسرائيليات ، ويرويها بإسناده عن كعب

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٣/ ٣٨٥ .
(٢) التفسير والمفسرون ، د . الذهبي : ١/ ٢١٠ـ ٢١١ .
(٣) معجم الأدباء : ٨/ ٤٥ .

الأحبار وغيره ، ولعل هذا راجع إلى تأثره بالروايات التاريخية التي عالجها في كتابة المشهور ، وكان يتعقب كثيراً من الإسرائيليات بالنقد ، وبقي الكثير الذي يحتاج إلى فحص شامل .

كما عُني في تفسيره بالاستشهاد بالشعر العربي متبعاً في هذا ابن عباس رضي الله عنهما ، كما عني بوجوه الإعراب ذاكراً آراء المدرستين الكوفية والبصرية ، بالإضافة إلى شغفه بالقضايا اللغوية مما يُعد كنزاً ثميناً يدل على ثقافة واسعة .

كان تفسيره مفقوداً ، ثم قدّر أن وجدت نسخة في حائل بالمملكة العربية السعودية ، وطُبع الكتاب بتحقيق العالمين أحمد شاكر ومحمود شاكر في مصر ، وصدر منه ستة عشر جزءاً من أصل ثلاثين جزءاً ، فوصلا إلى نهاية تفسير سبع وعشرين آية من سورة إبراهيم .

٢ـ تفسير القرآن العظيم :

مؤلفه الإمام الجليل الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير ، ولد في بصرىٰ سنة (٧٠٠هـ) ، وتوفي سنة (٧٧٤هـ)[1] . من كتبه : « البداية والنهاية » في التاريخ ، و« الاجتهاد في طلب الجهاد » ، و« جامع المسانيد العشرة » في الحديث .

وقد اعتنى ابن كثير بالرواية شأن الطبري ؛ فأكثر من الأسانيد مستخدماً الجرح والتعديل لعلمه الواسع بفنون الحديث وأحوال الرجال ، فيذكر الآيات الموضحة للمعنى ، ثم يسرد طائفة من الحديث الشريف ، ثم أقوال الصحابة والتابعين ، ومن يليهم من السلف الصالح ، بالإضافة إلى عنايته باللغة ومذاهبها .

---

(١) طبقات المفسرين للداودي : ١/ ١١١ .

ولا ينسى ابن كثير أن ينقل عن الطبري وابن عطية ، وكان يحذر من إسرائيليات ينقلها عن أسلافه ، كما يبدي اهتماماً بالمسائل الفقهية ناقلاً أدلة العلماء عند شرح آيات الأحكام ، فيخوض في المذاهب الفقهية من غير توسع نجده عند فقهاء المفسرين .

ويعد ما استدركه ابن كثير على أسلافه منقبة توضح منهجه الذي يُعرف عند أهل الحديث من النقد والتجريح ومناقشة المرويات ، فقد كان يناقش الأسانيد والمرويات خصوصاً الإسرائيليات وكان قد أعرض عن كثير منها .

وقد طبع تفسيره مرات كثيرة ، ثم ظهر في أربعة أجزاء ، وقد اختصره بعضهم مثل الأستاذ محمد علي صابوني الذي قدمه بحذف الأسانيد ، والإبقاء على عبارة المؤلف رحمه الله ، فجاء المختصر في ثلاثة أجزاء :

ونذكر من التفاسير المأثورة :

١ـ معالم التنزيل : مؤلفه الحسين بن مسعود البغوي (ـ ٥١٠هـ) .

٢ـ المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز : لابن عطية (ـ ٥٧٦هـ) عبد الحق بن غالب الغرناطي .

٣ـ الجواهر الحسان في تفسير القرآن : للثعالبي عبد الرحمن بن محمد (٨٧٦هـ) .

٤ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور : لجلال الدين السيوطي (ـ ٩١١هـ) .

ب ـ التفسير بالرأي :

ونعني به التفسير القائم على الاجتهاد بعد الاحتكام إلى الدلالة اللغوية ، وأسباب النزول ، والنسخ ، وأصول الدين ، وغير هذا من

أدوات التفسير ، وقد اختلف العلماء بين قبوله ورفضه ، والراجح أنه مقبول ما دام لا يتعدى المقررات الشرعية ، فهو مبني على التفكير الذي هو فريضة إسلامية ، قال عز وجل : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] ، ومن هذا التفاسير المقبولة :

١ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأويل :

مؤلفه جار الله الزمخشري محمود بن عمرو (ـ ٥٣٨هـ) من المعتزلة ، ومن كتبه « الفائق في غريب الحديث » ، و« أساس البلاغة » ، و« المفصل » في النحو .

امتاز الكشاف بالإحاطة الوافية بعلوم البلاغة ، وهكذا قدم لنا الزمخشري أول تفسير أدبي كامل ، كان العلماء بعده عالة عليه ؛ إذ جمع فيه المعطيات الفنية في كتابي عبد القاهر الجرجاني (ـ ٤٧١هـ) « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » ، وطبق تلك الأصول الفنية على الآيات جميعاً بتذوق لم يُسبق إليه .

وكان الزمخشري حريصاً على الانتصار لمذهبه في الاعتزال ، وكان يتذرع باللغة والمجاز حتى يصل إلى إبراز مذهبه ، كما في إنكار رؤية الله ، والإرادة ، وخلق الأفعال ، وتأويل الآيات المتشابهات ، وقد تعقبه محمد بن المنير السكندري (ـ ٦٨٥هـ) بحاشيته « الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال » منتصراً للسنة .

٢ـ مفاتيح الغيب :

ألفه محمد بن عمر فخر الدين الرازي الذي ولد في الري سنة (٥٤٤هـ) ، وتوفي في هراة سنة (ـ ٦٠٦هـ) ، وكان إماماً في التفسير ، وعلم الكلام ، وطبيباً ماهراً ، ولشدة ورعه ندم ـ كما يقال ـ عن اشتغاله

بعلم الكلام[1] ، ومن مؤلفاته : « المحصول في علم الأصول » ، و« نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز » وهو ملخص في البلاغة ، و« مسائل في الطب » ، وغيرها في الفلسفة ، والهندسة ، وأصول العقيدة .

ومفاتيح الغيب أضخم تفسير في علم الكلام ، فقد ضمّنه مناقشات مطولة مع المذاهب المخالفة للسنة ، وكان يُعنى بالعلوم الرياضية والفلسفية ومباحث الكونيات والطب والفلك ، حتى قيل ـ كما ذكر السيوطي ـ : « فيه كل شيء إلا التفسير » .

وقد طبع الكتاب أول مرة في ثمانية مجلدات ، ثم في اثنين وعشرين مجلداً ، وقد عيب عليه تطويل الحجج التي يذكرها الطرف الآخر ، حتى يكون رده مختصراً رغم أنه يقسم الآية إلى مسائل ، ويسهب في التفصيلات والتبويب .

٣ـ الجامع لأحكام القرآن :

مؤلفه الإمام محمد بن أحمد القرطبي (ـ ٦٧١هـ) الذي كان من أهل العلم الواسع ، والزهد في الحياة ، عني فيه بالفقه ، واللغة ، والقراءات ، والرد على المنحرفين ، وكان يكثر من النقل عن أسلافه مصرحاً بأسمائهم مناقشاً آراءهم من غير تعصّب .

ويبرز تبجيله وموضوعيته في بسط المسائل الفقهية ومناقشة الفقهاء ، وتصحيح كثير من الأفكار الخاطئة والاجتهادات الجانحة عن الحق ، مثل ما ورد عن ابن العربي المفسر المالكي (ـ٥٤٣هـ) صاحب « أحكام القرآن»، وهكذا قدّم لنا القرطبي أوسع تفسير فقهي بكل حرية وإنصاف، وهو موسوعة ثقافية في شتّى علوم الدين ، وقد طُبع في عشرة أجزاء وله فهارس جيدة .

---

(١) الإتقان للسيوطي : ٢/ ٢٩٠ .

٤ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل :

لصاحبه عبد الله بن عمر البيضاوي (ـ٦٩١هـ) ، نسبة إلى مدينة البيضاء في بلاد فارس ، كان قاضياً في شيراز ، فلُقب بقاضي القضاة ، كتب في علم الأصول والتوحيد ، والفلك ، والمنطق ، والنحو ، والتصوف ، والتاريخ[١] .

كان البيضاوي قد جمع بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي . ويقال : إنه اختصره من الكشاف ، وانتزع منه الاعتزال ؛ إذ كان يُعنى بتقرير الأدلة على أصول أهل السنة ، وكان يذكر مخالفته الزمخشري في كثير من المواضع ، كما انتقد الإمام الرازي رغم تأثره به في الأمور الكونية .

نجد في تفسيره مادة وفيرة من الحديث الشريف الذي فسر به أول الأمر الآيات ، ثم ذكر أسباب النزول إن كانت الآية نزلت بسبب مع شيء يسير من الإسرائيليات بذكر صيغة التمريض عند آيات القصص .

ولا نعدم إشارات طيبة في النحو والإعراب ، والبلاغة ، كما اعتنى بالقراءات من غير التزام بالمتواتر منها ، واستشهد بالشعر القديم ، واشتمل على كثير من مرويات الصحابة والتابعين متوصّلاً إلى استنباطات جيدة .

ويؤخذ على هذا التفسير صعوبة العبارة التي تُشْكِلُ على القارئ أحياناً، مما يجعل الفضل لشارح هذا التفسير الإمام شهاب الدين الخفاجي وسمّاه : « عناية القاضي وكفاية الراضي » ، الذي طبع على حاشية التفسير ، وينبغي التنبيه على ضعف كثير من الأحاديث التي أوردها في نهاية كل سورة قصداً إلى بيان فضل السورة ، إذ لم يكن ثبتاً في صحتها .

---

(١) راجع البيضاوي مفسراً ، د . عبد العزيز حاجي ، ص/ ٦٧ـ ٨٧ .

٥ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل :

للإمام النسفي (ـ ٧١٠هـ) عبد الله بن أحمد ، سمي بالنسفي نسبة إلى قرية في الهند ، وهو فقيه حنفي ، له في الفقه « كنز الدقائق » ، وفي أصول الفقه « المنار » .

قبس تفسيره من اختصار لجهود الزمخشري والبيضاوي ، وامتاز بالقليل من المرويات القديمة ، وكان يجمع بين وجوه الإعرابات والقراءات التي التزم منها بالمتواتر ، وكشف عن الدقائق الفنية بإيجاز ينسب إلى الزمخشري ، بل كان يردد عبارته على الأغلب .

وكان النسفي مهتماً بالأحكام الفقهية والمذاهب ، ولكنه لا يتوسع كما في أي مجال ، وقلل من ذكر الإسرائيليات ، لكنه لا يتعقبها بالنقد والتجريح في كل موضع ، إذ لا يرى مانعاً من رواية ما لا يمسّ العقيدة ، طبع في مجلدين ، ثم في خمسة مجلدات ، وطبع اليوم في مجلد واحد .

٦ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم :

وهو تفسير حافل جاء في خمسة مجلدات ، ألفه أبو السعود محمد بن محمد العمادي (ـ ٩٥١هـ) الذي ينحدر من أسرة اشتهرت بالعلم والمناصب الدينية .

وقد تتلمذ العمادي على أجلّة العلماء في عصره ، اعتنى بالفقه حتى قلد قضاء قسطنطينية ، ثم تولى أمر الفتوى ، ويذكر من مظاهر حذقه أنه كان يكتب الفتوى وجوابها بالمنظوم والمنثور ، وبالعربية والتركية ، وهذا ما أعاقه عن التأليف ، فاستغرق في تأليف تفسيره الميمون « إرشاد العقل السليم » خمس عشرة سنة .

وقد لقّب أبو السعود العمادي بخطيب المفسرين ، وذلك لجمال عبارته ، مما ساعد على ذيوع شهرة تفسيره الذي خلّصه من تعقيد عبارة

البيضاوي ، واعتزال الزمخشري ، بل كان كثيراً ما ينبه على تجنب الاعتزال ، ويحذر من خروجه على السنة .

اهتمّ أبو السعود بذكر المناسبات بين الآيات ، وبين السور ، وقد قلل من العناية بأمور الفقه رغم كونه مفتياً ، ولم يتعصب لمذهبه الحنفي ، وكان يسخر من كثير من الإسرائيليات ، ويرد على أباطيل الأعداء المخالفين للسنة .

وامتاز بالأمانة العلمية ، إذ كان يصرّح في نقله بأسماء من نقل عنهم مثل البيضاوي ، والرازي ، ولا ينسى أن يناقش الأخير في قضايا كلامية أحياناً ، وقد أكثر من الاستشهاد بالشعر القديم ، والعناية بالجوانب البلاغية مقتدياً بالزمخشري ، فيعدّ تفسيره أحسن تفسير أدبي قديم انتفت منه روح الاعتزال .

ومن التفاسير بالرأي :

١ـ روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني : لشهاب الدين محمود أفندي الآلوسي (ـ١٢٧٠هـ) .

٢ـ أحكام القرآن : لأحمد بن علي الرازي الجصّاص (ـ٣٠٥هـ) .

٣ـ أحكام القرآن : لمحمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المالكي (ـ ٥٤٣هـ) .

٤ـ البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي (ـ ٧٤٥هـ) .

ج ـ تفاسير معاصرة :

١ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن :

مؤلّفه محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، نسبة إلى شنقيط ، وهي دولة موريتانيا الإسلامية ، ولد سنة (١٣٢٥هـ) ، وتلقى العلوم الشرعية والعربية في بلاده .

ثم أدى فريضة الحجّ فاتصل بعلماء العربية السعودية ، فعزم على

البقاء فيها ، وأوكل إليه التدريس في المسجد النبوي ، ثم عين مدرساً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وصار عضواً في هيئة كبار العلماء ، وعضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى سنة (١٣٩٣هـ) بمكة المكرمة .

امتاز تفسيره بتفسير القرآن بالقرآن ، بيد أنه التزم القراءات السبع ولم يعن بالشاذة ، كما امتاز ببيان الأحكام الفقهية ودقة الاستنباط ، وحسن التفصيل ، وقوة الاستدلال من غير تعصّب .

كما اشتمل تفسيره على اهتمام بتحقيق المسائل اللغوية والمسائل الأصولية ، والكلام على أسانيد الحديث ، فدل على ثقافة متنوعة شاملة ، وقد وصل إلى تفسير آخر سورة المجادلة ، وأكمله تلميذه إلى آخر القرآن ، وصدر في عشرة مجلدات[١] .

٢ـ تفسير القرآن الحكيم :

للشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ـ ١٣٥٤هـ) ، واشتهر باسم تفسير المنار . والشيخ رشيد تلميذ للإمام محمد عبده ، ومتأثر بكثير من أفكاره ، ففسر على منهجه من حيث النظرة العقلية ، وانتهى عند الآية (١٠١) من سورة يوسف ، ثم أكمله الأستاذ بهجت البيطار ، وهذا القدر من التفسير مطبوع في اثني عشر مجلداً .

أراد الشيخ رشيد أن يقدم تفسيراً اجتماعياً خالياً من العلوم الطبيعية ، والمسائل الفنية ، وخرافات الإسرائيليات ، والأحاديث الموضوعية ، قال : « إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن ، وطرق الاهتداء به في هذا الزمان »[٢] .

---

(١) راجع دراسات في علوم القرآن ، د . فهد الرومي ، ص/١٧٦ـ١٧٧ .

(٢) تفسير المنار : ٤/٤٢ .

توسع الشيخ رشيد في المسائل الاجتماعية لكونه صحفياً مطلعاً على الأمراض الاجتماعية ، متصلاً بمعظم شرائح المجتمع ، لهذا نراه شديد النكير على الاعتقاد بالسحر ، وسيطرة الشياطين ، بل كان ينكر رؤية الإنسان للجن .

ومن آرائه الاعتزالية أن أهل الكبائر خالدون في جهنم ، كما ابتعد عن جادة الحق في إنكاره للمعجزات الحسية للنبي ﷺ ، فلم يقر إلا بمعجزة القرآن الكريم ، وكان يخالف جمهور الفقهاء في مسائل فقهية كإثباته الوصية للوالدين والأقربين ، وذلك لإنكاره النسخ ، إذ « لا وصية لوارث »[1] كما في الحديث النبوي .

هذا لا يمنع من أن الشيخ رشيد اجتهد وتحمّس لبعض الأفكار المخالفة من شدة حرصه على مقاومة العقلية القديمة البالية، ونبذ الخرافات والبدع، فكان لايني في الدفاع عن الإسلام ودحض الشكوك المحيطة به[2] .

٣ـ في ظلال القرآن :

مؤلفه سيّد قطب (١٩٠٩ـ ١٩٦٦م) ، الذي عاش في مصر ، وكان قد تخرّج في كلية العلوم ، ثم أتقن العلوم الأدبية ، وتابع نشاطه الأدبي في الصحف ، وله من المؤلفات : « مشاهد القيامة » ، و« التصوير الفني في القرآن » ، و« النقد الأدبي » .

وتفسيره أحسن ما كتب في كشف الجماليات الفنية في هذا العصر ؛ إذ لفت النظر إلى تصوير القرآن وموسيقاه الخارجية والداخلية ، وفق

---

(١) البخاري في الوصايا ، ح (٢٥٩٦) ، والترمذي في الوصايا ، ح (٢١٢٢) ، وأبو داود في الوصايا ، ح (٢٨٧٠) ، والنسائي : ٦/ ٢٤٧ ، وابن ماجه في الوصايا ، ح (٢٧١٢ـ ٢٧١٤) ، والدارقطني ، الفرائض ٢/ ٤٨ ، ح (٤١٠٧) .

(٢) التفسير والمفسرون ، د . الذهب : ٢/ ٦٣٨ـ ٦٤٧ .

تذوق عميق ليس فيه سمات التقليد ، بل مزج فيه بين العاطفة الدينية والمعايير الفنية .

وكان يقدّم مقدمة عامة لكل سورة ، يبين فيها الموضوع ، وسمات السورة ، ثم يقسم السورة إلى مقاطع ، ويربط بينها ببيان المناسبة ، ويعرج عندما تسنح الفرصة على التوجيهات الفكرية للآية .

كان سيّد قطب يهدف إلى تقديم تفسير يجمع بين الإصلاح الاجتماعي والتذوق الأدبي ، ولهذا أعرض عن المرويات القديمة ، والمباحث اللغوية والنحوية ، كما أعرض عن ذكر المسائل الفقهية لأهل الشأن . طبع كتابه في ستة مجلدات .

ومن التفاسير المعاصرة :

١ـ الجواهر في تفسير القرآن العظيم : للشيخ طنطاوي جوهري ، المتوفى سنة (١٣٥٣هـ ـ ١٩٤٠م) في مصر .

٢ـ التفسير المنير : د . وهبة الزحيلي ، أستاذ الفقه في كلية الشريعة بدمشق .

٣ـ تفسير القرآن العظيم : للشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله ، من مصر ، طبع منه حتى الآن سبعة عشر مجلداً .

٤ـ روح القرآن : لعفيف طبّارة من لبنان ، وصدر منه أجزاء تبدأ من أواخر المصحف الشريف .

والله ولي التوفيق

* * *